حسين مردان والشباب

محمد مبارك

سأظل عبد عواطفي ولذائذي ما دمت في كنف الشباب الزاهر فاذا انقضى زمن الشباب ولم تعد ذكراه الا كالخيال .. العابر ودخلت في ليل الكهولة وانقضت ايام لهوي في الزمان الغابر وبدت لي الدنيا سعيرا مظلما ما بين اشباح الفناء الساحر وقبرت بين جوانحي قلبا به عبثت اعاصير الشتاء الجائر واطلقت روحي في سجون عذابها تشدو باغنية الجحيم الساعر.

بهذه الكلمات المباشرة التي لم يشأ الشاعر ان يبذل جهدا في انتقائها وتزويقها وصياغتها يصور حسين مردان وموقفه من الشباب.. وقد كان صادقا فيما صور وان وجدناه يدخل ليل الكهولة قبل ليلها .. وكان بروح من الشباب لم يخف لها او راوه تضعف فتوة .. اذ الشباب لدى ابي علي حياة لانهاية لتقبلها واضطرابها في الحال او الانفعال وعالم لاحدود له من الحركة والتلوين والفعل .. ومعان لا يحصرها قلم او يحيط بها قول وانما لك ان تتحدث و تتحدث عن الشباب في هذه الروح المعذبة والشاردة .. وتلك الانفعالات المتقلبة العاصفة وذلك النزق النبيل والتهتك الفاضل والعنف المسالم .. وذلك الوفاء والشرف وفناء الفكر وعنفوان الايمان بالانسان والتثبيت المحموم بالحياة وفي تلك المشاعر المتضاربة من اليأس والأمل والقنوط والاصرار والاذعان والمكابرة والانسحاب والتحدي والاسفاف ونوازع الفروسية المجيدة .. انه النبل الذي لم يشا ان يكن حكاية طين فطفق يرجم الارض بما يفري بجلها .. وينهك عرضها ويهزا من قيمها ومعاييرها وما خلقت من محرمات ونصبت من تابوتات.. وبعد فهل وفيت حديثا او بلغت ليس لاحد عرف ابا علي عاش معه فترة ان يزعم ذلك فللشباب عنده هما الحياة من قوى مجنونة وصور متوحشة واوضاع وحالات لن يبلغها خيال فيحيط بها .. او ينوشها ذهن فيصادر عليها .. والان هل ثمة شيء اخر .. اجل .. ان الشباب عند حسين مردان جانبا انسانيا اخر يقوم بهذا التوجه الحاني نحو الشباب مشاكسة لهم وغيرة منهم تعصب اليهم وتبني لقضاياهم ودفاعا مجيدا عنهم وحرسا مخبولا عنهم على ان يكون واحدا منهم في عبثهم ونزواتهم ومغامراتهم ومخاوفهم .. والسنة الجحيم ستعصف بهم في داخل هذا الفارس عصفا يختل له كل التوازن فلا يقوى على شيئا ازاءه الا الصمت المثقل بالحزن الذي لاحد له والالم الذي يكاد تتقراه نتا عنيفا في تضاريس وجهه المتعب ونضرات عينينه الكابيتين ..

وبعد فهل لي ان اجتزئ عينات من مواقفه حيال الشباب في احدى اماسي اتحاد الادباء في شتاء .. عام ١٩٦٢ وقف شاب صبي في حدود السابعة عشر من العمر ليقرأ علينا شعر يقول فيه : ان في داخل كل منا اوديب اعمى كان هذا الشاب الصبي هو رياض قاسم وكان ابو علي حاضرا شانه في كل امسية اربعاء فما ان انتهى الشاب من قراءة قصيدته حتى وقف ابو علي واقبل على الشاب الصبي حانيا كاب مشجعا وناصحا موجها متخذا منه صديقا كفؤاً ورفيقا يجتمع معه في صعيد واحد حتى وان كان ثلاثين عاما تمت بينهم الصحبة وزمالة ورفقة دربه الشاق .. وقد اتصلت بهم هذه الصحبة حتى غادر ابو علي الى غير رجعة ويوم جاء الى الاذاعة بعد ثورة تموز ١٩٦٨ كان انتمائه له حقيقيا وحبه الى العمل فيها نقيا صافيا ومن ثم كان جاهدا فيها لا يسأل اجرا ولا ثوابا ونشاطه الدؤوب لاينتظر غير كلمة شكرا وبعد سنة او بعض سنة من وجوده في الاذاعة التقى برفيق عمره ومن شبه له انه التقاهما في صباه ثم غابا ليعودا ويلتقيا نه شبابا غضا في كهولته المبكرة انهما حميد الخاقاني واحمد خلف اللذان لم يتركهما او يتركاه لحظة عين على الرغم من شجاه المتصل معهما واختلافهما معه في الكثير . وظلا مع ابي علي على هذا النحو من الصحبة والشجار حتى واراه التراب وكانا اصدق من بكاءه واكثر الناس إحساسا بفقده اذ كان لهما اكثر من رفيق .. اما حكايته مع الشاعر فوزي كريم فهي تدخل في باب التقاء الارواح منها في معرفة شاعر بشاعر .. فلقد وجد في فوزي ما كان يطمح إليه فوجد فوزي فيه الانموذج الذي كان يبحث عنه فلا يجده .. ان الحياة والتجربة والموقف الذي يعشقه على الرغم من اقتناع فوزي في تجاوزه عطاءا وشعرا .. ومن ثم كان رثاء فوزي لحسين مردان رثاء له ايضا اذ كانت فجيعته به لاتعد له الاخر .. فلقد فقد بفقده قريبا لايقوى على الالتصاق من دونه والاحساس الفاجع بعبثية الحياة ولاجدواها يتجسدان في ابي علي لدى فوزي بالشكل الذي يريد ان يكون هو رجل الشعر والثقافة والادب والمسؤولية لاختيار الشجاعة .. اما التقاءه بحميد سعيد في صعيد اخر في تكافؤ والحب والاحترام الذي لم يقو على نفيه اختلاف الأنموذجين وليس هذا فقط من امر الشباب مع حسين مردان وانما كان ابو علي باستمرار مع كل حركة او تجمع يضم احلامهم

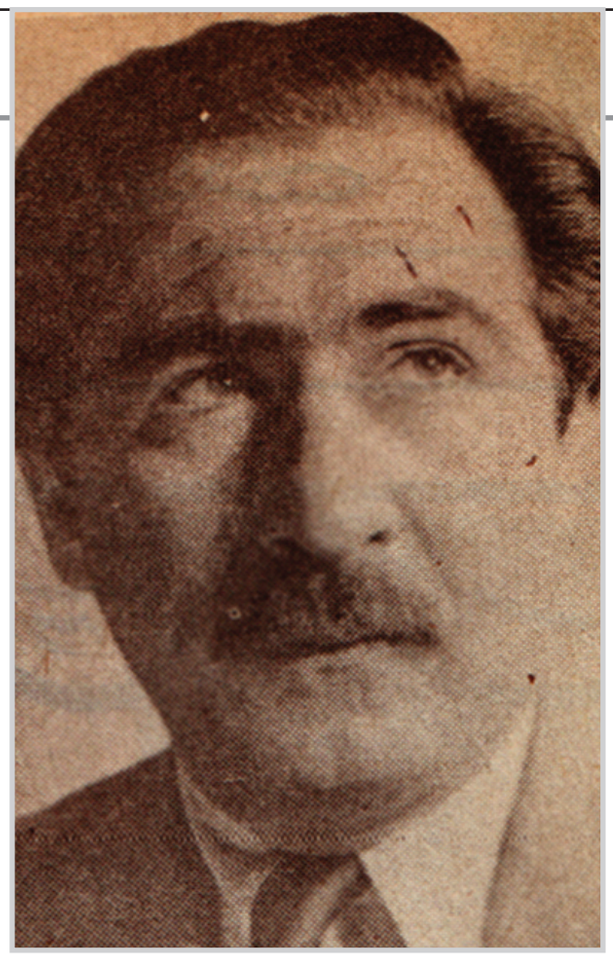
حسين مردان في شبابه

في يوم كان تجمع المرفأ في اتحاد الادباء يستقبل زواياه المنعزلة من بناية الاتحاد في الستينيات .. كان حسين مردان صوت هذا المرفا في الهيئة الادارية للاتحاد ومنظروه الايدلوجي على الصفحات الادبية وفي اخر ايامه كم كان حسين مردان منطوياً على نفسه عندما كانت تعقد الهيئة الادارية اجتماعا للادباء الذي كان هو عضوا مؤسسا في عهديه وعضو دائم في الهيئة الادارية ويعمل كالمكوك في احدى زوايا الاتحاد وبينما اجتماع الهيئة وما كان ان تمضي عليه عشرة دقائق حتى اشفعها باخرى مع الشباب ليعود بعدها الى الاجتماع وهكذا حتى يرفض فيأتي تجمع الشباب وقد أزاح عن كاهله عبئا ليتنفس الصعداء بينهم مما ارهق عصبا وضيق صدراً.

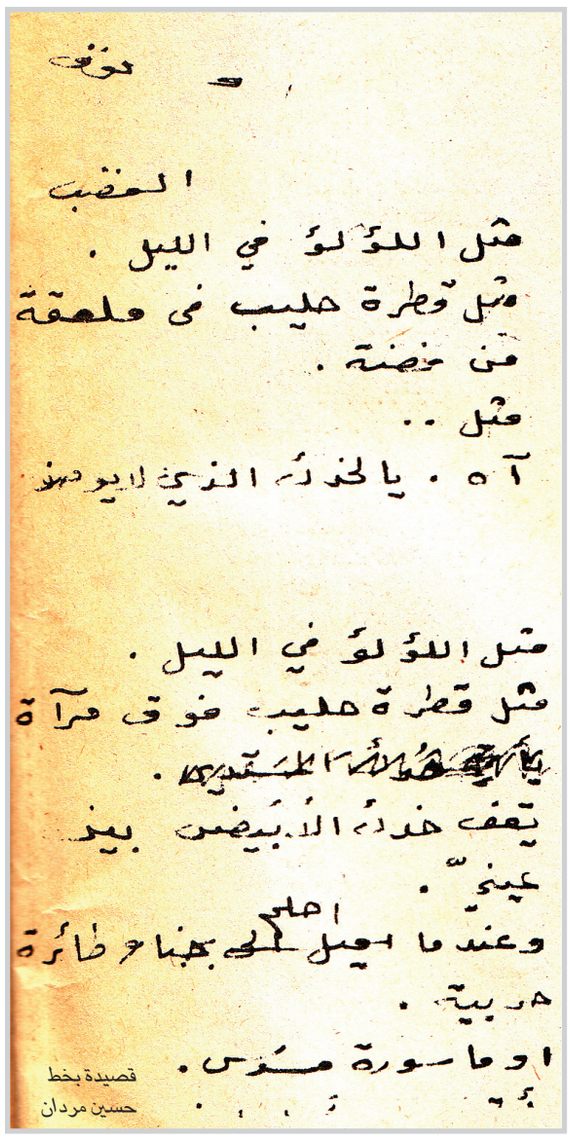
قصيدة بخط حسين مردان

حسين مردان العذاب.. الانتماء

علوان السلمان

في عام ١٩٢٧ كان تفتح عينيه للحياة باكياً لأب شرطي خيال وام بسيطة لا تعرف سوى بيتها.. واصل دراسته حتى الصف الثاني المتوسط في بعقوبة ثم هجرها ليستعيض عن دروسه المدرسية بقراءة الكتب الادبية والشعرية والقصصية حتى انه كان يقرأ الكتاب في ليلة واحدة فتسجل ذاكرته اغلبه..

ومن هذا المنطلق بدأ شعوره يتبلور ويكشف عن موهبة شعرية وكتابية.. ثم ينتقل الى بغداد حاملاً ارادة الانسان الرافض والمتحدي لكل جمود المجتمع وتناقضاته وهو في العشرين من عمره فكان مشرداً يلتحف الارصفة والحدائق ليلاً وفي النهار يرتاد مقهى الزهاوي ليحاور ادباءها ويجادلهم بأفكاره التي تتزاحم في ذهنه.. ومن ثم تنقذه اكف ورحمة صديقه صفاء الحيدري الشاعر من الضياع الليلي فينقله الى شقة محام كان صفاء يعمل معه.. حتى اذا ما تُوفرت له فرصة عمل في جريدة (الاهالي) مصححاً ومراسلاً فيلجأ الى عريشة في مطبعتها ويتخذ منها بيتاً يأويه.. وبالرغم من ذلك ظل قلقاً.. متلهفاً لحياة التشرد مع رغبة رهيبة للموت الذي كان يظنه الطريق الوحيد الذي يوصله الى الهدوء والراحة.. وكان يؤمن بمقولة وايتمان (الموت هو الملاك الوحيد الذي يقضي على آخر ذرات العذاب الانساني..).. وهو يقول:

ما حياتي ولم اجد في حياتي/ غير
حزن يذيب صم الصخور
لعنة جئت للحياة وامضي/ مثلما
جئت لعنة للقبور

وبرغم ذلك شغل فكره في الشعر والمقال والنقد الادبي فكان صوتاً مبدعاً استطاع ان يغزو الافاق ويعبر القارات حتى ان الكاتب الجيكي (بربا) قال فيه: «حسين مردان شاعر وجودي النزعة لكنه في طليعة الادباء التقدميين وشعره يحظى بأهتمام الناس في العراق لما فيه من الجدة..»

لقد سأم حسين مردان الحياة وكثيراً ما فكر في الانتحار كون عذاباته ظلت تلاحقه حتى على مؤلفاته فعندما اصدر ديوانه الاول (قصائد عارية) عام ١٩٤٩ الذي اثار عاصفة من النقد واحدث ضجة في الاوساط الادبية كونه زوبعة تمرد هائلة على الواقع فأمرت السلطات حينها بمصادرة الديوان وتقديم الشاعر الى المحاكم..

وقد تضمن هذا الديوان مقدمة كتبها الشاعر يقول فيها.. (ثق انك لا تفضلني على الرغم من قذارتي الا بشيء واحد وهو أني احيا عارياً بينما تحيا ساترا ذاتك بالف قناع.. فنصيحتي هي ان لا تقدم على قراءة هذا الديوان اذا كنت تخشى حقيقتك وتخاف رؤية الحيوان الرابض في اعماقك..)

وكذلك جرى الحال مع ديوانه الثاني (اللحن الاسود) عام ١٩٥٠..

حسين مردان من خلال دواوينه الشعرية يبدو انه كان مشحوناً بالتمرد والانفعال لم يألفه في الهدوء الخالصي (مدينة الخالص) لذا هجره الى بغداد الصاخبة.. المتوقدة بالمبدعين.. وكانت عبقريته ونبوغه الشعري الشفيع الاول له والعون لمحاربة الجوع بمساعدة اصحابه المقربين وعشاق الادب..

حسين مردان بالرغم من كل ما يحيطه من جوع وحرمان وسجون ومحاكم لم يتوقف ابداعه.. بل ظل مصراً على النتاج المتنوع بكل (ما يجيده الاطفال من اصرار..) لانه عاشق الحرف حتى الثمالة ومنفذه الوحيد الذي يرسم همومه وآماله..

فهو يقول:

لا لن اتوب: وهل يتوب مفكر
حر على قول الحقيقة مجبر
هبني سجنت فلست أول ثائر
يرمى باعماق السجون ويقبر
هبني شنقت فلست أول مصلح
اودت بفكرته حبال تذعر
اني لالعن من يعيش ببلدة
يعلو الغبي بها ولا يتفجر

حسين مردان في مجاميعه الشعرية وقصائده ابتداء من (قصائد عارية) و(اللحن الاسود) و(رجل الضباب) و(صور مرعبة) و(العالم تنور) و(الربيع والجوع) مروراً بـ(الارجوحة هادئة الحبال) و(اغصان الحديد) و(هلاهل نحو الشمس) و(طراز خاص) و(نشيد الانشاد) و(عزيزتي فلانة) وانتهاء بمقالاته الصحفية المتناثرة في الاخبار والاهالي والبلاد والف باء.. نجده يرسم صورة لمجتمعه المتخم بالعلل والامراض الاجتماعية مع احساس بالموت وصور التشرد والضياع والمرأة.. ويبقى الموت شغله الشاغل.. انه الشبح الذي يطارده منتظراً له.. فظل محاصراً بهذا الهاجس الذي لا يفارقه حتى وفاته عام ١٩٧٢

وبالرغم من كل ذلك كان حسين مردان مملوءاً بالحركة والانفعال حتى انه يقول: (ولانني اشعر اني سأموت ان لم اواصل الانفجار..) لهذا لم يتوقف عن الحركة فظل متوهجاً.. مبدعاً.. منتجاً..

حسين مردان الذي اجاد الشعر اجاد النثر الشعري وانطلقت كتاباته معبرة عن احاسيسه وافكاره التي سلكها في الشعر بلغة شاعرة متدفأة بهواجس المرأة.. مظللة بهواجس الموت والتشرد وكتاباته الشعرية المتنوعة خير دليل على عدم نضوب فكره المتجدد المبدع..

لذا كان جزءاً من حركة التجديد في الشعر الحديث اذ كان يعتقد (ان تحطيم القافية الواحدة في الشعر الحديث لم يستطع انقاذ الشعر من حوض الصمغ الذي فيه.. وارى ان العقبة الوحيدة التي تقف امام اندفاع الشعر العربي الى الذروة هو الوزن.. وقد آن لنا أن ندعو الى القضاء على الوزن فنرفع بذلك كيس الرمل الثقيل عن عنق الشاعر المعاصر..) وهذا يعني ان لحسين مردان وجهات نظر نقدية وقد حققها في كتابيه (مقالات في النقد الادبي) و(الازهار تورق داخل الصاعقة).

لقد كان حسين مردان مشاركاً فاعلاً في ثورة الشعر الحديث بعد الهزات الاجتماعية والفكرية التي تعرض لها العراق وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية.. اذ فتحت الابواب والنوافذ مشرعة امام الشاعر العراقي فعرف المذاهب الادبية والعلمية والاجتماعية وهذا يعني انفتاحاً على عالم جديد يبحث عمن يعاصره ويسايره.. وكان الشاعر حسين مردان ضمن الجموع التي دخلت هذه الابواب لذا احس بان عليه ان يكون جزءاً من القضية وعليه ان يساهم في الثورة ضد الفساد والتحلل الاجتماعي والاستعمار واتباعه (خاصة وان السجون علمته الكثير بحكم روادها التقدميين) وكانت قصيدته (رجل الضباب) تحمل بين طياتها جرأة سياسية اخترق فيها كل الحصارات التي كانت تلتف حول نفسه.. فهو يقول: وهكذا وجد حسين مردان نفسه مع الجماهير في كفاحها وعشقها فهو يقول:- (وانا ارى ان الكفاح الوطني نفسه لا ينفصل عن العواطف البشرية فلولا الشعور بالذات لما كان هناك أي حافز للتضحية ولعل الحب هو أهم الدوافع الانسانية واكثرها استفزازا للعمل..) ان التكرار في قصائد حسين مردان ظاهرة بارزة وهي تشكل عنده اهم عنصر في بناء القصيدة اذ انه يقول: (ان التكرار يحدث نوعاً من التداعي الذهني عند القارئ وينبهه الى المحور الخفي الذي تدور حوله فكرة القصيدة..) فله:

ايامنا مرت سدى مرت سدى
وضحكنا قد انتهى
وكل ما نحمله من الثرى
الى الثرى

اضافة الى ذلك وظف حسين مردان المفردة الشعبية في قصائده وجعلها اساساً في قاموسه الشعري لما فيها من فنية وواقعية ولتعميق الصورة وجعلها اكثر دينامية واقصر الطرق لايصال الفكرة الى ذهن المتلقي.. وهذا يعني انه يريد ان يؤكد اصالته وشعبيته وانتماءه الى بيئته.. كقوله:-

بسيول ضحكتها الطليقة
وبلون وجنتها الانيقة
فبكل منعطف حديقة
اصباغها.. من ذيل (نفنوف) خفيف

وقوله:-

و(شيف) من البرتقال
تشب على ثلجه الحرق

وقوله:- وانت يا انت
يا فوهة (التنور).. يا اختي

وقوله:- والحب ان لم تلتصق مرة
(سالوفة) مجهولة المولد

في ظل هذا العالم المنسجم في التفكير الاسطوري كان حسين

حسين مردان في الطائرة

الصديق الأسطوري الذي نازل طواحين الهواء

عبد الوهاب البياتي

أتذكر انني رأيت والتقيت بحسين مردان قبل ان تراه بغداد وكان ذلك ما بين عامي ١٩٤٣ – ١٩٤٤ أي قبل ان تضع الحرب الكونية الثانية أوزارها .. وكنت وقتها طالبا بالاعدادية المركزية في بغداد وكنت قد اشتركت في سفرة مدرسية الى بعقوبة في يوم شتائي مشمس.

في مقهى شعبي من مقاهي بعقوبة وكان الوقت قبل الظهر بقليل وفد الينا شخص غريب الاطوار والملبس والنظرات وكان كل شيء فيه يبدو غريبا على بيئة مدينتي التي كانت لاتزال ضاربة جذورها في اعماق الريف الذي فقد نصف براءته وظل محتفظا بالنصف الاخر قناعة بالتقاليد عريقة في القدم تمتد اصولها الى ما قبل الفتح الاسلامي للعراق لم يلفت نظرنا في بادئ الامر بالرغم من محاولاته المتكررة ان يلفت نظرنا اذ كان قد وجد فينا وفداً من الغرباء على مدينتي وادرك بحبس ابن الشعب الطيب البسيط باننا من بغداد وبعد دقائق أتى إلينا من يقول بان هذا الغريب الوجه والملبس هو شاعر وان اسمه حسين مردان على الرغم من انني واصدقائي الذين كانوا معي في تل الرحلة الشتائية كنا نتابع الحركة الشعرية في العراق لكننا لم نكن بعد قد سمعنا بشاعر اسمه حسين مردان وبعد وقت قصير اقترب منا مسلما متأبطا دفترا سميكا اسودا علاه صدى الايام اللامبالية الغبراء واثار الايدي التي تعاورته .. بدأ حديثه عن الشاعر الفرنسي بودلير قبل ان يحدثنا عن نفسه حديث الخبير العليم فادركنا منذ الوهلة الاولى انه يريد ان يتحدث عن نفسه من خلال حديث بودلير وكان بودلير في تلك السنوات غير معروف في الوسط الادبي بالعراق اذ لم تترجم له الى العربية الا قصائد قليلة جدا وقلة منه ما كتب عنه وعن حياته ثم قرأ علينا حسين مردان بعد ذلك بعض قصائده وكانت تظهر عليها منذ القراءة الاولى بصمات الياس ابو شبكة وغيره من شعراء العرب الذي كانوا يدورون في فلكه ولكننا على الرغم من كل هذه العلامات غير المشجعة اهتممنا به جيدا ونصحناه ان يترك بعقوبة ويذهب الى بغداد لعله يشق طريقا بين زحامها الشعري الذي كان يوشك ان ينفجر اذا اكتشفنا في نبرات صوته الواثق وفي لون وجهه النحاسي المتحد إرادة لاتقهر ثم اخبرنا بانه كان قد ذهب الى بغداد عدة مرات ولكنه لم يجد من يشجعه على البقاء فيها ولهذا فانه كان يعود قبل ان يقضي اول نهار هناك ولكنه كمااقسم امامنا قرر هذه المرة ان يذهب ولا يعود .. وفي بغداد – الثورة الشعرية – التي كان الجواهري علمها وحاديها في تلك السنوات كان حسين مردان في كل مكان .. من دون ان يكون خوفه الغريزي من المجهول وطبيعته المتقلبة واحتفاظه بحذره نصف الريفي جعله يبدو حائرا مترددا كما جعله لايستطيع التأقلم مع بيئتة الجديدة لكن شجاعته التي هي الوجه الاخر لخوفه وامانته مع صدقه وهاجسه الشعري الاول جعله يقف امام المحاكم ويدخل المواقف والسجون متحديا سلطان الظلام الجائر لتلك الايام ليبدد ظلمة محدقة به وببعض ابناء جيله.

واستعذب الشاعر لعذابه ومن ثم لعذاب الاخرين فجعله لايلتفت كثيرا الى الزلازل والبراكين والاحداث جسيمة التي كانت تجتاح خارطة الشعر العراقي بخاصة والعربي عامة وفي تلك السنوات العاصفة الحاسمة لكنه كان يبدو وكأنه موجودا في قلبها.

وتلك هي لعبة الشعر الغامضة القاسية الخطرة ان تعتقد انك داخل اللعبة الشعرية ولكنك في الوقت نفسه بعيدا عنها بل انك مقيم على تخوم زمنين شعريين، زمن شعري يموت وزمن شعري يولد فتضيع ضيعتين وتستشهد شهادتين .. وستظل ذكرى حسين مردان الذي لم يتمتع بالشباب الصديق الاسطوري الذي نازل طواحين الهواء في زمن العقم واليباب والمجاعة، علامة شاخصة يتوقف عندها القارىء والناقد والمحب ليتزود بنظرة الى بغداد الخالدة التي مات في حسرة حبها شاعر من جيلنا .

حسين مردان يستمع الى رثائه..

لقد كتب فوزي كريم قصيدة في حسين مردان قبل وفاته بأشهر قليلة وظهرت في الادب بعد وفاة حسين مردان بايام قليلة : وكان قد قرائها فوزي لحسين قبل ان يبعث بها الى الادب فقال حسين : انك لترثيني بها وكانت فعلا مرثية رهيبة ليست كالمراثي التي الفناها في الشعر العربي كانت تحليلا دقيقا مركزا للتكوين النفسي والاجتماعي والذاتي لحسين مردان من خلال علاقاته بنفسه وبالمجتمع وبالمصير والثقافة.

لم تكن مرثية فحسب إنما كانت نبوءة صادقة خر على اثرها حسين مردان كالنجم . كانت كالصاعقة التي احرقته .. فقد غادرنا حسين مردان بعدها باشهر قليلة وترك الباب مفتوحا ولن يغلقه احد لانه ليس هناك من يشبهه. سيد الفقراء وسيد الحزن : الرجل السر .. المفضوح ..

عن كتاب شجرة الغابة الحجرية لطراد الكبيسي

حسين مردان مع اصدقائه في منطقة الميدان